(هَذِيان)

ظلامٌ دَامس، أجاهد لقتل دموعي، لم أكن يومًا أرهب الموت، لكنني ورغم كل شيء أرهب الفقدان، أتحامل جاهدة إلى حيث غرفة أبي، أتلصص على استحياء، ينتشلني من الضياع صوت أنفاسه، لكنها في ذلك الوقت تُمثل لي أروع سيمفونيات بيتهوفن، إحساس بالراحة أو قل هي الحياة.

أعود سريري للنوم، لا أدري كم من الدقائق أو الساعات قد هربت، إنّه الصباح، بِئس القلب الذي ينبض بالخوف، يحثني "الخوف" ذلك اللعين لأسرع إلى أبي، كأنني في سباق مع الموت من منا سيصل إليه أولًا، رأيته يبتسم، فابتسمت بكل ما أمتلك من جهد، ما زالت أنفاسه نبض قلبي.

لا أدري ما به، رفعت صوتي قليلًا: أبي، ماذا بك؟!

لا شيء يا صغيرتي، لكن هناك خبر مؤلم، "ريم بنا" مُفضلتك توفاها ربَّ الحق.

أيها الموت، ماذا تريد مني؟!!

لماذا تذكرني بك دومًا، أنا حقًا لا أنساك، أرجوك ابتعد عن وجدان أبي.

وكأن العالم كله توقف، لا أرى ولا أسمع ولا أشعر سوى بتلك العبرات التي تسابق بعضها على وجهي، احتضنته بكل ما أوتيت من قوة وبكيت كأنني لم أبكِ من قبل. كل هذا العالم ثقيل على عيني.

واكتمل المشهد بصورة جدتي، وكأنَّ حزنًا واحدًا لا يكفي.

أعلم أن البكاء لن يعيدك إلى تلك الدنيا، ولكنني أفتقد الحياة أسفل قدميك، عجيبة هي قدرة أصابعك على مسح أحزاني، وحل مشكلاتي، أبكي حالي بعد فراقك لو تعلمين.

في مكان ما في هذا العالم، هناك جرح علق بأوتار قلب، أحدهم يتجرع كاسات الفراق، هناك قلبٌ توقف عن التنفس مثلما تذوقت، تلك أسباب كافية لأكف عن الابتسام، وسأترك لكُم الهراء.

لم أكن يومًا بهذا السوء الذي أنا به الآن، ربما كنت، لكنني لا أريد أن يطيل كل هذا الخراب الذي يشملني.

الكثير والكثير من الكتب، العديد من الأوراق، الألوان التي تضم روحي، أكواب ساخنة ولا يهم ما بداخلها، ضوء شمس قادر على إحيائي، الأخضر الذي يشملني، أقدم لكم اعتذارًا من عمق روحي، والندم يفيض من كلماتي، لقد كانت أكبر أخطائي أنني أبحث عن نفسي في مكان آخر.

بالتأكيد سيمر كل مُر، هذا لا يعني أن الفرح سيطرق بابك، لا تنس أنك بائس، ستعيش أيامًا فارغة، تنطق كلمات باهتة لا حياة فيها، لقد انتهت مرحلة الفعل ولا عليك سوى رد الفعل، انتهى الانتظار، التفكير،

الشغف، حتى الصدمات لم تعد تُؤثر بك، لم يتبقَ لك شيء تعافر ألا تخسره، سيتحول النوم إلى أقصى أمنياتك، لكنك لم تجده.

يقال أنه السرير، أو مضجع النوم والراحة والسكون، كاذبون بحق ربَّ السماء، لم أنعم فيك براحة، لم تغلبني كوابيس الموت سوى عليه، متى أتخلص من ذاك العذاب! أحبُ ربي كثيرًا، وأتشوق لرؤياه، لكنه الموت الذي يغلبني بصديقه الذي يصحبه دائمًا "الفقدان"

عزيزي الفقدان، أرجوك بحق السماء، لا تحول بيني وبين أبي!

لست مستعدة الآن للفراق، لست مستعدة له للأبد.

أنا بخير، نيابةٍ عن كل تفاصيلي التي تخبرني عكس ذلك.

في رهان خاسر مع الفراق، ضحكنا معًا ألا نجعله يحول بيننا، لم نتعوذ منه، ها هو الآن يضحك بكل طاقته ويفتح شدقيه على دموع كانت.

للفراق أربعين لونًا، تذوقتها وحدي.

لا أعرف من الذي ابتدع السؤال عن الحال، أود أن أعرفه لأرسل له برقيات غضبي، المفترض أننا بخير، لا أدري ما الذي يحدث، لولا سؤاله "كيف الحال" لظللنا على يقين أننا بخير، ولا نعرف معنى سوء الحال أو نحياه.

كيف أمست؟!

متعبة، منهكة، حانقة، رافضة العالم، أمست محبة للجميع أو ثائرة عليهم، أمست سعيدة للغاية رغم بكائها المتواصل وتنهيداتها التي تملأ شقوق غرفتها.

الأشياء كلها اجتمعت واتحدت واتفقت وتعاهدت على أن تثير بكائي، وتلعن غبائي وتذكرني بضعفي وخيباتي المتكررة.

وكيف أصبحت؟!

أصبحت ناسية أو متناسية، كطفل رضيع لا يعرف سوى أمه وأبيه، لعلها الأيام القادمة ليعرف إخوته، أصبحت بذاكرة جديدة أكثر تحفظًا في استقبال زوار جدد إلى عقلها، أصبحت بخير كثير رغم بشاعة العالم.

صباح الخير لذاتي، لروحي، لأحلامي التي أيقظتني، صباح خير وقوة وأنا، صباح يخلو من كل ما يصيب قلبي بالألم.

أمي، صباحك خير بقدر حبات اللؤلؤ المضيئة حين ابتسامتك، أريد أن أخبرك أنها معجزة كونية أن تظهر الشمس والقمر في صباح واحد، أعترف بانتهاء عصر المعجزات، لكن الذي جعل الجنة تحت قدميك، جعلك قمرًا يضيئني.

إنَّه الليل الدّامس الذي لا يعرف جندي ضعيف مهزوم سوى منامي، يسرع ليعد سيناريو جديدًا ليضفي على قلبي البائس رهبة الفقدان، ساعات قليلة من التلصص على أنفاس أبي، إحساس الراحة المؤقت ليشرق الصباح ويعلن أبي "دكتور أحمد خالد توفيق في ذمّة الله"

وكأن الدموع كل صباح تمارس رياضتها المفضلة "السباق على وجهي" أصبحت أشعر أنني لا أشعر، لا أحيا، لم أكن يوما على تلك الأرض.

الأشياء الجميلة تموت سرًا، لكنني كنت وما زلت أحبك، لا أدري كيف ولماذا تزهر بداخلي كلما قرأتك بين السطور.

الأجواء تلك الليلة مؤلمة، كل شيء يثيرني للبكاء، رُبما أشارك القمر وحدته هذا المساء.

نفس ندبة الأسى، مليارات التساؤلات، الدقائق الكئيبة التي لا تمر، الجبال القابعة المعلقة بأنفاسي، أسود قاتم لا حياة فيه ولا روح، بئس المشاعر كافة، تتجدد جميعها حتى لو كان الفراق الألف. بِئس المشاعر جميعها لا أعرف منها سوى الفقدان.

طبيبي العزيز، أخبرني ما هذا الذي أحياه؟!!

-لا شيء جسديًا، كفي عن هذا الهراء.

لقد شفيت تمامًا من كافة الآلام الجسدية، روحي فقط هي التي تؤلمني.

ما لا نبوح به، يُرهق أرواحنا، يقضي على سعادتنا، يحطم خلايا صبرنا، يَشل بقايا تفكيرنا، يجعلنا رهينة انتظار فارغ، يدمي قلبا سكن به. نزيف صامت لو تعلم.

فوبيا أن أكون أنا، كما أنا، أو أن أكون كما كنت، أو أن ازداد ليتضاعف ما أنا عليه الآن...

المساء الحبيب في ذاك اليوم، لا أدري كيف أصبح حبيبًا بعدما كان بائسًا.

سأذهب للنوم لا شك، تلك ليست المشكلة، الأمر في حد ذاته يتعلق بمتى سيأتي النوم إليَّ، متى تغادرني أفكاري وأوهامي، ومتى يغادرني أرقي وجزعي، متى يسكن داخلي في سباته كما حاربت لينام الآخر جسدي.

روحي فقط التي ترهقني، وتلك التي بحاجة للراحة.

وذنب يطبق على صدرك ويفتك بمتعة المعصية، فتسرع لباب توبته مستعظمًا كِبر إثمك وقلبك يفيض من الندم، فتوبة، فخشوع، فقبول، فمداومة، فإعظام وإجلال وإكبار ومغفرة، فالحمد الله الذي ابتلى قلبي بالذنب ليثقل ميزاني بالتوبة.

أنهيت وضوئي للعشاء، كالعادة يصاحبني خيالي وتفكيري إلى حيثُ أصلي.

رأيته يسرع إليَّ، خوف... رهبة... لا أدري ماذا أفعل، لا أحد ينقذني! إلى أين أجري أو أسرع لأختفي منه!!

أعرفه فهو يقصدني... لم يخلصني منه أحد.

أجاهد لأرفع صوتي، أمي... أبي... أفيقوا من نومكم... ها هو قادم نحوي، لا أدري ماذا أفعل!!

انتبهت إلى سجادة صلاتي التي تلامس قدمي، تركت العالم كله وشأني...

أكفكف دموعي ب"الله أكبر" رأيته يبطئ في مشيته، أحسست بهدوءه وتوازنه... أكملت فاتحة الكتاب، رأيته يبتسم، فيبطئ، فهدوء، فراحة...

أنهيت صلاتي، عرفته فلم أرهبه، جاء ليحمل أمانة ربه إليه.

ما أعظمك ربي تبدل الخوف أمنا وراحة، تتسلم أمانتك بعد انتهاء صلاة العشاء!

ما أسعدني، روحي تعانق السماء في معية ربها، وقلب أبي يدق بالحياة.

أبي..

لست متأكدة بعد هل أحبك أم لا، لكن فقط كن بجانبي للأبد، لا تغادر تفاصيل روحي، بعدما فارق جسدي عالمكم.

أبي..

أحبك كثيرًا، أحُبك إلى الحد الذي لا يعرف اكتفاء، حينما تقرأ كلماتي، تأكد أنني سعيدة، ها هو قد تحقق دعائي، اغمر قلبك بالفرحة.

ستقابل جنديًّا اسمه الفقدان، اقتله، نعم اقتله، فقد حال بيني وبين ما أحب، حال بيني وبينك، الأصعب من الموت هو رحيلي دون أن أخبرك كم أنا أحبك...

فلتقرأ ما يطبق على صدري... كلما خشيت فراقك بكيت داخل حدود أوراقي...

وشيء من الحقيقة يخفي خلفه أعوامًا من الألم، الذكريات الجميلة صنعت فقط لتبقى خنجرًا يمزق خلايا صبرنا حينما تنتهي، فتقف عاجزًا تتأمل انهيار خلايا فرحك وتحولها لحسرات تضيق على أنفاسك وتأسر روحك وتقيد تفكيرك، الذكريات الجميلة ما هي إلا ألم مؤجل يشتد كلما ازدادت مساحتها ليقل تحملك ويزداد تآكل نبضات قلبك.

أبي...

أعلم جيدًا أنك ستترك فراشك ليلًا لتأتي تتأكد من نومي العميق، وأنه لا يوجد ما يعكر صفو أحلامي، أرجوك كف عن هذا، أنا سعيدة جدًا ما دامت أنفاسك تعزف في سلام.

والتعريف الأكثر دقة للموت، ليس فراق الحياة، ولكن مغادرة القلب، سأظل نبضًا داخل قلبك يا كُلُّ روحي.

أحُبك لحين نلتقي في فردوس أعلى لا فراق فيه.